البيان والتبيين

للجاحظ

obeikandl.com

تعريف بالمؤلف :ـ

هو " عالم العربية الجليل " عمرو بن محبوب ، ويكنى " أبو عثمان " وشهرته " الجاحظ " ولد " بالبصرة " عام ستين ومائة للهجرة النبوية الكريمة ، والذى يوافق سنة ست وسبعين وسبعمائة للميلاد ، والبصرة بومذاك مهد العلم ، ومنتدى الأدب ، ومركز الإشعاع الثقافى فى العالم الإسلامى أجمع .

وقد أمضى " الجاحظ " فى " البصرة " طفولته ، وكانت تلك الطفولة ، طفولة تعسة و أحاطها الشقاء من كل المناحى ، وانتظمها الكدح ، والجهاد ، والتعب من شتى النواحى ، حيث إن والده توفى وهو فى يفاعته فقد كان " الجاحظ " صغير السن ، ولم يرث عن أبيه ثروة يعيش بها ، أو يقتات منها ، أو حتى تعينه على مواجهة بعض أعباء الحياة ، بيد أن جو البصرة الثقافى دفعه إلى العلم والتعلم فذهب إلى الكتان وقد أظهر " الجاحظ " الصبى بومذاك ذكاءً خارقاً ونجابة نادرة ، ونباهة فذة ، وعبقرية شهد له بها غيره .

وكان نهماً فى تحصيل المعارف ، فلما اشتد ساعده ، وقوى بنيانه أخذ يعمل إلى جانب طلب العلم ، وهذا العمل هو بيع الخبز والسمك فى الأسواق ، وقد كان يغشى المساجد ليلتقى بعلمائها ، وليسمع منهم أو يجادلهم ، كما كان يتردد على سوق " المربد " قرب " البصرة " من العراق مركز الإشعاع الثقافى ، والتمدن ، والحضارة وكان يختلف إليه الشعراء والخطباء ، وقد شغله ذلك عن العمل فضاقت به أمه ، وذات يوم جاءها يطلب طعاماً فقدمت له أمه طبقاً فيه كراريس ورق وقالت له: " كل استهزاءً ، وتهكماً وسخرية من شغله بالدراسة ، واهتمامه بالقراءة، وانصرافه عن العمل والكسب فخرج " الجاحظ " إلى المسجد مسروراً ورآه " يونس بن عمران " فأدرك حاله ، وسأله عن شأنه ، ولما وقف على أمره أعطاه " خمسين ديناراً " فأخذها الجاحظ ومضى إلى السوق ثم اشترى دقيقاً وطعاماً ، وعاد إلى داره

فى عجب ، وزهو ، وافتخار ، والحمالون يمشون وراءه فلما رأته أمه دهشت وسألته " من أين لك هذا ؟ فرد عليها متشفياً:"من الورق الذى قدمته لى فى الطبق ".

كان " الجاحظ " نهماً إلى القراءة ، لم يقع فى يده كتاب إلا أتى عليه ، ويكترى حوانيت الوارقين ويبيت فيها للدرس والمطالعة ، وله قدرة فائقة على الحفظ والرواية ، فأكسبه ذلك معرفة واسعة وثقافة منوعة ، بين دينية وأدبية ، عربية ويونانية ، فارسية وهندية ، والظاهر أنه عرف كتاف الخطابه Rhetorique لأرسطو ، أو " الروطوريقا " كما تسميه المصادر العربية الأولى ، بعض المعرفة قبل أن تتناوله الترجمة الكاملة ، وعاش فى عصر طافح بالقم فى كل فن ، فعاصر من رجال الفقه والحديث " مالكاً ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى " ومن الكتاب " ابن المقفع ، وإبراهيم الصولى ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وابن الزيات ، " ومن علماء اللغة " الخليل بن أحمد " ومن الشعراء " بشار بن برد ، وأبا نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبا العتاهية ، وأبا تمام والبحترى ، وابن الرومى " .

ودرس على " الأصمعى ، وأبى عبيدة ، ، وأبى يزيد الأنصارى والأخفش . والتقى بالنظام " أبى إسحاق إبراهيم بن سيار البلخى " المتوفى عام ٢٢١ هـ – ٨٤٥ م وتتلمذ عليه ، وأعجب به أستاذاً ، وقال عنه : " الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإذا كان ذلك صحيحا فهو " أبو إسحاق النظام " وقد اتخذ الاعتزال مذهباً ، وأصبح أحد ثلاثة من كبار المعتزلة ، وله طائفة خاصة تنسب إليه تسمى " الجاحظية " يقول " ياقوت " فى كتابه " إرشاد الأديب : " اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : " الجاحظ ، وعلى بن عبد الله اللطفى ، وأبوزيد البلخى " والجاحظ يزيد لفظه على معناه ، وأما " أبو زيد " فيتوافق لفظه ومعناه ، وسمى بالجاحظ لجحوظ عينيه .

وكان " الجاحظ " صاحب رحلة حيث إنه أمضى حياته متنقلاً بين " البصـــرة وبغداد " ثم رحل إلى " دمشق " وزار " أنطاكية " وثمت احتمال بأنه جاء " مصـــر " فأكسبه التنقل ، وتنوع البيئة ، وتباين العيش عمقاً فى التجربة ، وشمولاً فى النظرة ، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والناس .

وقد كان " الجاحظ " دميم الخلقة ، جهم الوجه ، جـــاحظ العينـــين ، وســـمى جاحظاً لذلك ، كما أومأنا إلى ذلك آنفاً ، حتى إنه بلغ فى جحوظ عينيه الغاية ومـــن هنا كان لقبه " الجاحظ " وقد سمع الخليفة " المتوكل " بمنزلته فى العلـــم والفهـــم ، فاستقدمه إليه " سر من رأى " " سامراء " ليؤدب ولده فلما رآه استبشـــع منظـــره ، وصرفه بعشرة آلاف درهم . وهذه الدمامة كانـــت مـــن وراء مرحـــه ودعابتـــه وسخريته من نفسه ، وتندره بأعز أصدقائه واستخف بالعـــادات المرعيـــة والآداب السائدة ، وأدرك أن المراوحة بين الجد والهزل تذهب برتابة الحياة وتخفف من ثقلها ، وأن تقديم الهزل بين يدى الجد أنفع له ، وأدعى إلى إقبال النـــاس عليـــه ، فكـــان لطيف الروح ، فكه المحاضرة ، صادق المواساة ، سريع البديهة ، حاضر النكتـــة ، يقبل على الحياة مغتبطاً بها ، متفائلاً لا يرى منها إلا وجههـــا المشـــرق ، يســـجل الفكاهة حتى لو كانت على نفسه .

يقول : ما أخجلنى إلا إمرأتان : رأيت إحداهما فى العسكر ، وهـــو مصـــيف الخلفاء ، وكانت طويلة القامة وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلى كلى معنا ، فقالت : بل اصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأما الأخرى فجـــاءتنى وأنـــا على باب دارى ، فقالت : بى إليك حاجة وأريدك أن تمشى معى لنقضيها ، فمشيت معها حتى أتت بى صائغ يهودى فأشارت إلى وقالت مثل هذا . وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلى بفص ، وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت لها : يا سيدتى ما رأيت الشيطان فجاءت بك .

وأقبلت الدنيا على " الجاحظ " وأقبل عليها يعب من متعها الحسية ، وما لبثت " البصرة " أن ضاقت " بالجاحظ " فرحل إلى بغداد ، وتردد على مجالس العلماء والأدباء ووجد عند أشياخها ما لم يجده عند أساتذته فى البصرة وفيها استطارت شهرته ، وسمع به الخليفة " المأمون " فأراد أن يفيد منه ، وكان قد قرأ له فى كتاب الإمامة " وأعجب به ، وأسند إليه ديوان " الرسائل " فلم يبق فيه غير أيام ثلاثة ، ثم تركه هارباً بحريته وعقليته لأنه لم يستطع أن يأخذ نفسه بنظم الدواوين وقوانينها ولم يتحمل الدسائس من الذين خافوا على مناصبهم من ذكائه وعلمه ، فترك وظيفته غير آسف عليها .

ويصف لنا " الجاحظ " الوظائف والموظفين بومذاك ، وهذا الوصف الذى سنورده ينطبق على جل الموظفين ، بل جميعهم إلا من عصم الله وهم قلة ، يقول " الجاحظ " :" فإن أولئك الموظفين ، لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم من لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب ، وألفها الغزل فهم مع ذلك فى تكدير ، وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغيير الدول " .

ثم توثقت صلته بمحمد بن عبد الملك ، المعروف " بابن الزيات " وزير الخليفة المعتصم ، ثم " الواثق " من بعده ، وكان من كبار رجال الأدب والسياسة ، فكتب له " الجاحظ " ومدحه وأهداه كتاب " الحيوان " ولما توفى " الواثق " وتولى " المتوكل " وكان يكره المعتزلة ، قتل " ابن الزيات " وفر " الجاحظ " حتى لا يكون ثانى إثنين إذ هما فى التنور ، ثم قبض عليه وجىء به مقيداً ، فقال له " أحمد بن رؤاد " والله ما علمتك متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوىء ، وما فتنى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك .

ويصف " المبرد " صاحب كتاب " الكامل " أيام " الجاحظ " الأخيرة فيقول : " وقد ثقلت عليه السنون فناء بها جسمه ووهنت أمامها قواه ، وأصيب بفالج نصفى ،

فعاد إلى البصرة ، مسقط رأسه ، ومهبط ذكرياته ، يحتمى ببيته وأمـــه ، يقـــول : دخلت على " الجاحظ " فى آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مـــن نصفه مفلوج لو خز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الـــذباب بقربه لآلمه، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها . ولم يمت " الجاحظ " ضحية المرض ، وإنما ذهب شهيد الكتب ، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس بينها يقرأ ، فانهالت عليه وقتلته ولحدته ميتاً ، بعد أن كانـــت شـــاغل حياته ، وسلوة عقله عام ٢٥٥ هـــ – ٩٦٨ م .

وكان " الجاحظ " نابغة عصره ، ويحكى عن " ثابت بن قرة " العالم المشهور أنه قال " ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : أولهم " عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) والثانى " الحسن البصرى – رحمه الله – والثالث " أبو عثمان الجاحظ " وصـــنف " أبو حيان التوحيدى " كتابا فى تقريظ [١١] " الجاحظ " .

مؤلفاته :ـ

للجاحظ " إمام العربية " كثرة كاثرة من التواليف ، والمصـــنفات فـــى شـــتى مناحى العلم والمعرفة ، ولكن مؤلفات " الجاحظ " لم تصل إلينا كاملة حيث امتـــدت إليها يد الضياع ، فانمحى كثير من تأليفه ، واغتالتها يد الزمن ، وضاع جلهـــا فـــى عهد باكر مثل كتاب " نظم القرآن " فنحن لا نعرف عنه شـــيئاً ســـوى مـــا أورده " الجاحظ " عن هذا الكتاب فى كتابه " الحيوان " .

وأشهر مؤلفاته" الحيوان ، والبخلاء، والبيان والتبيين وهو موضوع دراستنا" .

١- إرشاد الأديب / لياقوت . الحيوان / للجاحظ .معجم الأدباء / لياقوت . البيان والتبيين / للجاحظ .

openkandil.com

بين يدى الكتاب :ـ

إن كتاب " البيان والتبيين " بعد الحلقة الثانية من سلسلة مكتبة " الجاحظ " وهو أشهر كتبه ، وأكثرها تداولاً ، وأعظمها نفعاً فبهذا الكتاب استقامت ألسن الكثيرين من طلاب العلم ، وبه تخرجت كثرة كاثرة من الأدباء ، فهذا الكتاب يعد أيضاً أستاذاً لأرهاط متعاقبة من المتأدبين ، وهو شيخ جماعات متتابعة ممن صقلوا ذوقهم بصقال " الجاحظ " ورفعوا منهم بالتأمل فى فنه ، وعبقريته . وفيه يقول : " أبو هلال العسكرى " وذلك عند الكلام على كتب البلاغة : " وكان أكبرها ، وأشهرها كتاب " البيان والتبيين " " لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ " وهو كثير الفوائد ، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء ، والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة .

إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ميثونة فى تضاعيف الكتاب ومنثورة فى أثنائه ، وهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، وهو كلام رجل قرأ الكتاب ، وسير أغواره ، وخبر أسراره ورازه ، بيد أنه لم يشأ أن يرسم لنا صورة واضحة وابن رشيق القيراونى يقول : " وقد استفرغ " أبو عثمان الجاحظ" وهو علامة وقته – الجهد ، وصنع كتاباً لا يبلغ جودة وفصلاً ، ثم ما ادعى إحاطته بهذا الفن لكثرته ، وأن كلام الناس لا يحيط به إلا الله – عز وجل – أما " ابن خلدون المغربى " فيسجل لنا رأى قدماء العلماء إذ يقول عند الكلام على علم الأدب : " وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن ، وأركانه أربعة دواوين وهى :-

أولاً :- أدب الكاتب لابن قتيبة الدينورى .

ثانياً :- كتاب الكامل للمبرد .

ثالثاً :- كتاب البيان والتبيين .

رابعاً :- كتاب النوادر لأبى القالى .[١٢]
وما سوى هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها .

منهجه فى الكتاب :ـ

كان " الجاحظ " لا يتقيد بنظام محكم يترسمه ، ولا يلتزم نهجاً مستقيماً ، فهو يبدأ الكلام فى قضية من القضايا ثم يدعها ليدخل فى قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف من قبل ، وكانت هذه سبيل كثرة من علماء عصره ، ويشفع له فى ذلك تقدمه فى السن ، وجدة التأليف فى تلك الأبحاث التى طرقها ، كل هذا كان شفيعاً له فى الاسترسال والانطلاق . وكان " الجاحظ " يشعر بذلك أحياناً ويعتذر عنه ، فيقول عند الكلام عن البيان : وكان فى الحق أن يكون هذا البيان فى أول هذا الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدين [١٣].

وهو يعد فى أواخر هذا الجزء أن يتكلم فى الجزء الثانى على طعن الشعربيه على العرب فى اتخاذ " المخصره " ثم يحاول الوفاء بما وعد فى الجزء الثانى ، ولكنه يرى أن الفرصة لم تسنح له بعد فيعتذر بقوله : " ولكنا أحببنا أن تصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجلة من التابعين" ويمضى الجزء بأكمله ولا يستطيع " الجاحظ " الوفاء بما وعد به صدر الجزء الثالث من الكتاب .

ومرد مباحث الكتاب وقضاياه إلى الضروب التالية :
أولاً : البيان والبلاغة .
ثانياً : القواعد البلاغية
ثالثاً : القول فى مذهب الوسط .

١- الصناعتين / لأبى هلال العسكرى . العمدة / لابن رشيق القيراونى ج١٧١ فى باب البيان . مقدمة ابن خلدون ص ٨٥ .

١٣ - البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٧٦ .

obeikandi.com

رابعاً : الخطابة .

خامساً : الشعر .

سادساً : الأسجاع .

سابعاً : نماذج من الوصايا والرسائل .

ثامناً : طائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم .

تاسعاً : عرض لبعض كلام النوكى والحمقى ونوادرهم .

عاشراً : ضروب من النكات البلاغية .

نماذج من الكتاب

النموذج الأول : " فى ذكر المعلمين " :

ومن أمثال العامة : " أحمق من معلم كتاب " وقد ذكرهم " صقلاب " فقال :

وكيف يرجى الرأى والعقل عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل [١٤]

وفى قول بعض الحكماء " لا تستشيروا معلماً ، ولا راعى غنم ، ولا كثير القعود مع النساء " وقالوا : لا تدع أم حبيبتك تضربه فإنه أعقل منها وإن كانت أسن منه .

وقد سمعنا فى المثل " أحمق من راعى ضأن ثمانين " [١٥]

فأما استحماق رعاة الغنم فى الجملة فكيف يكون ذلك صواباً وقد رعى عدة من جلة الأنبياء – صلى الله عليهم – ولعمرى إن الفدادين من أهل الوبر ، ورعاة الإبل لا يتنيلون على رعاة الغنم ، ويقول أحدهم لصاحبه: إن كنت كاذباً فحلبت قاعداً ، وقال الآخر :

ترى حالب المغرى إذا صر قاعدا وحالبهن القائم المتطاول [١٦]

---

١٤ - الحيوان : جـ ٥ ص ٤٨٨ .

١٥ - عيون الأخبار : لابن تينة جـ ٢ ص ٥٤ .

١٦ - البيان والتبيين : للجاحظ ص ٢٤٨ ، نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ط الخامسة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

obeikandl.com

النموذج الثانى :

خطبة (يوسف بن عمر)

ومن خطبة " ليوسف بن عمر " يقول فيها :

اتقوا الله عباد الله ، فكم من مؤمل أملاً لا يبلغه ، وجامع مالاً لا يأكله ، ومانع ما سوف يتركه ، ولعله من باطل جمعه ومن حق منعه ، أصابه حراماً ، وأورثه عدواً ، فاحتمل إصره ، وباء بوزره ، وورد على ربه آسفاً لاهفاً ، قد خسر الدنيا والآخره ذلك هو الخسران المبين [١٧].

النموذج الثالث :

قال عيسى بن مريم عليه السلام : " فى المال ثلاث خصال أو بعضها قالوا وما هى يا روح الله ، قال : " يكسبه من غير حله ، قالوا فإن كسبه من حله ؟ قال : " يمنعه من حقه قالوا : فإن وضعه فى حقه ، قال : يشغله إصلاحه عن عبادة ربه . وقيل للرجل المريض كيف تجدك؟ قال : أجدنى لم أرض حياتى لموتى .

ويقول أبو ذر (رضي الله عنه) مارقت رسول الله (ﷺ) وقوتى من الجمعة إلى الجمعة مُدّ بضم الميم وهو ضرب من المكاييل ، وهو ربع صاع ، ولا والله لا أزداد عليه حتى ألقاه [١٨] .

وقيل لمحمد بن عمران : ما المروءة ؟ قال : ألا تعمل فى السر شيئاً تستحى منه فى العلانية .

---

١٧ ـ ذاته جـ ٢ ص ١٤٣ .
١٨ ـذاته جـ ٣ ص ١٩١ .

obeikandi.com

وقيل لأبى هريرة (ﷺ) ما المـــروءة ؟ قـــال : تقـــوى الله ، وإصـــلاح الصنيعة، والغداء والعشاء بالأقنية . ومر المسيح عليه السلام بقوم من بنى إسرائيل فشتموه فكلما قالوا له شراً ، قال المسيح عليه السلام – خيراً فقـــال لـــه " شـــمعون الصقى " : أكلما قالوا شراً قلت لهم خيراً فقال المسيح – عليه السلام : " كل امـــرئ يعطى بما عنده .

وقال بعضهم لامرئ القيس بن حجر : ما أطيب عيش الدنيا ؟ فقـــال امـــرؤ القيس بن حجر الكندى : أطيب عيش الدنيا بيضاء رعبوبـــة ، بالطيـــب مشـــبوبة ، بالشحم مكروبة ، وسئل عن ذلك الأعشى فقال : صهباء صافية تمذجها ساقية ، من صوب غادية .

وقيل مثل ذلك لطرفة بن العبد البكرى فقال : مطعم شـــهى وملـــبس دفـــى ، ومركب وطى . ويقول عامر بن عبد قيس : " الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان [١٩].

١٩ ـ ذاته جـ ٤ ص ٢٠ .

obeikandl.com